﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾

[الإسراء: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـذكـير الـنـبـيّ الـكـريـم بفضل الله العظيم

لـمّا ذَكَّر اللّه سبحانه رسوله بما كان في ذلك من رُشده صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم، أَتْبَعَه ببيان أنّه إنّما كان بعصمةِ اللّه له ليزداد شكرًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَبَّتْنَٰكَ﴾: أصلُ (ثبت) يدلُّ على دَوام الشَّيءِ، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا[2]، ومنه: ثَبْتُ الجَنانِ: ماضٍ في الأَمرِ والحَرْبِ، وأَثْبَتَ حُجَّتَهُ: أقامَها، وثَبَتَ القَوْلُ والأمرُ: وضَحَ، ورَجُلٌ ثَبْتٌ: أي حُجَّةٌ، والثّابتُ: اللاّزمُ الواقفُ[3]، والثَّبْتُ: المُتَثَبِّتُ في الأُمورِ[4]، وحَقيقَةُ التَّثبيت في الآية: تَثْبيتُ فَهْمِ النَّبيِّ ﷺ ورَأْيِهِ[5].

2) ﴿تَرْكَنُ﴾: أصلُ (ركن) يَدُلُّ على قوَّةٍ[6]، فالرُّكونُ: السُّكونُ والاِطْمِئْنانُ إلى الشَّيْءِ، يُقال: رَكَنَ إلَيْهِ: إذا اطْمَأَنَّ وسَكَنَ إلَيْهِ، ويأْتي بِمعنى المَيْلِ إلى الشَّيْءِ وقَصْدِهِ، ومِنْهُ الرُّكْنُ، وهو الجانِبُ الأَقْوى؛ لأنّ الشَّخْصَ يَميلُ ويَسْكُنُ إلَيْهِ[7]، والمُراد بالرُّكونِ في الآية: المَيْلُ بالرُّكْنِ؛ أَيْ: بالجانِبِ مِنَ الجَسَدِ واسْتُعْمِلَ في المُوافَقَةِ بِعَلاقَةِ القُرْبِ[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 486.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (ثبت).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 347.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 174.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركن).
(7) الجوهري، الصّحاح، وابن سِيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ركن).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

3) ﴿قَلِيلًا﴾: أصلُ (قلَّ) يَدُلُّ على نَزارَةِ الشَّيءِ، قَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قِلَّةً فَهو قَليلٌ، والقُلُّ: القِلَّةُ، وذلكَ كالذُّلِّ والذِّلَّة[1]، والقِلَّةُ: خِلاف الكَثْرَةِ، والقُلُّ: خِلافُ الكُثْر، وقَدْ قَلَّ يَقِلُّ قِلَّةً وقُلًّا، فَهو قَليلٌ[2]، والقِلَّةُ والكثرة يُستعملان في الأعداد، كما أنَّ العِظَم والصِّغَر يُستعملان في الأجسام، ثمَّ يُستعار كلُّ واحدٍ من الكثرة والعِظَم[3]، والمُرادُ بالقِلَّة في الآيةِ: خلافُ الكثرةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيّن الحقُّ تعالى بعضَ مظاهر فضله على نبيِّه ﷺ قائلًا: ولولا أنْ ثبَّتْناك يا مُحَمَّدُ ﷺ على الحَقِّ، وعَصَمناك مِنَ الانخداعِ بحيَلِ قَومِك الكُفّارِ؛ لقارَبْتَ أن تَميلَ إليهم شَيئًا قَليلًا، فتفعَلَ بعضَ الَّذي سألوك فِعْلَه[4].

لا عِصمةَ عنِ المعاصي إلّا بتوفيقِ اللهِ تعالى

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَلَوْلَآ﴾ ودلالتها:

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ بحرف (الواو) الدّالّة على العطف والاقتران؛ وذلك لأنّ قوله تعالى في هذه الآية من تكملة الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ فيكون الركون إليهم ركونًا فيما سألوه منه من التّنازل عن بعض أحكام الله الّتي أوحاها إليه[5].

تمامُ المنّةِ في العصمةِ والنّجاةِ من الفتنةِ

معنى (لولا) وبلاغة أسلوب الشرط:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ

امتناعُ ركونِه ﷺ لأهواءِ المشركين

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قلل - قلّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قلل).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسمين، عُمدة الحُفّاظ: (قلل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 15، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 300.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 174.

شَيۡـًٔا قَلِيلًا﴾ استعمال حرف (لولا)، وهو حرف امتناع لوجود؛ أيْ: يقتضي امتناعًا لوجودٍ؛ أيْ: يقتضي امتناعَ جوابه لوجودِ شرطه؛ أيْ: بسبب وجود شرطه[1]، بمعنى امتناع ركونه ﷺ لأهواء المشركين لوجود تثبيت الله له.

دلالة التعبير بالمصدر المؤوّل مع الفعل الماضي ﴿أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾:

تميّز المصدر المؤوَّل على الصريح ببيان الزمن

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا﴾ استعمال الحرف المصدري ﴿أَن﴾، وهو يُؤوَّل مع فعله بمصدر صريح، والتّقدير: (ولولا تثبيتُنا لك)، والنّكتة البلاغية في إيثار المصدر المُؤوَّل على الصّريح أنّ المصدر المُؤوَّلَ يبيّن الزمنَ، فدَلَّ قولُه تعالى: ﴿أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ على أنّ التثبيت قد وقع في حادثة سابقة.

تثبيت الله للنّبيّ ﷺ على الدّوام

وعُبِّر بالفعل الماضي ﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـًٔا قَلِيلًا﴾؛ إشعارًا بوقوع حادثة سابقة ثبّت الله فيها رسولَه ﷺ، كما يقتضي تحقّق تثبيت الله للنّبيّ ﷺ.

بلاغة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة:

تثبيت الله العظيم لرسوله الكريم

أُسنِدَ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ الفعلُ ﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالة على عظمة الله ﷻ وعلوّ قدْرِه، وفي ذلك تأييدٌ للنبيّ ﷺ وتأييسٌ للمشركين بأنّ الله العظيم يُثبِّت عبدَه ورسوله الكريم.

بلاغة الاستعارة في ﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾:

تثبيتُ رأي النبيّ ﷺ من الزَّيغ

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ صورةً بيانيَّةً تتمثّل في الاستعارة في لفظ ﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾؛ إذِ التثبيتُ جعلُ الشيءِ ثابتًا؛ أيْ: مُتمكِّنًا من مكانه غيرَ مُقَلْقَلٍ ولا مَقْلوعٍ، وهو مستعارٌ في هذه الآية لبقاءِ النبيّ ﷺ على حاله غيرَ متغيِّرٍ، وعُدِّيَ التثبيتُ إلى ضمير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 174.

النبيّ ﷺ الدّالِّ على ذاته، والمُرادُ تثبيتُ فهمِه ورأيِه، وهذا من الحُكم على الذّات، والمُراد بعض أحوالها بحسب دلالة المقام، مثل ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النّساء: 23]، فالمعنى: ولولا أن ثبَّتّنا رأيَكَ فأَقْرَرْناه على ما كان عليه في معاملة المشركين؛ لقاربتَ أن تَرْكَنَ إليهم[1].

معنى اللام في ﴿لَقَدْ﴾:

دلالة اللّام على قَسَم مُقدَّر

ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ حرفُ (اللّام) متّصلًا بحرف (قد)، وهي اللّام الموطِّئة للقَسَم، فيُؤكِّد الله ﷻ على أنّه لولا تثبيتُه لنبيِّه لقارَبَ الركونَ إليهم شيئًا قليلًا.

معنى (قد) في الآية:

تحقيق مقاربة الـركـون لـولا التثبيت

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ آثر النَّظْم الكريمُ استعمالَ الفعل (كاد) بصيغة الماضي المصحوبِ بـ(قد) الدّالّة على التّحقيق، وقد دخلت (اللّام) على (قد) مبالغةً في التّأكيد، وكثُر في الكلام اقترانُ جملة جواب القسم بـ(قد)؛ لأنّ القَسَمَ يُهيِّئ نفسَ السّامع لتوقُّع خبرٍ مُهمٍّ فيُؤتى بقد لأنّها تدلّ على تحقيق أمرٍ مُتوقَّع، والغرضُ من ذلك هو تأكيدُ حفظِ الله لنبيّه وتثبيتِه وعصمتِه من الزَّلَل، وبيانُ فضل الله عليه.

دلالة الفعل الماضي ﴿كِدتَّ﴾:

(كاد) إثباتُها نفيٌ ونفيُها إثباتٌ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ بالفعل الماضي ﴿كِدتَّ﴾، وهو من أفعال المقارَبة، بمعنى: ولولا تثبيتُنا لك وعصمتُنا لقاربتَ أن تميل إلى خُدَعِهم ومكْرِهم، وهذا من الله فضلُ تثبيتٍ لنبيِّه[2]، والمشهور عند أهل اللغة أنّ (كاد)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 174.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 684.

إثباتها نفي ونفيها إثبات؛ فإذا قيل: كاد يفعل؛ فمعناه أنّه لم يفعل، وإذا قيل: لم يَكَدْ يفعل؛ فمعناه أنّه فعله[1]، ولهذا نفى بعضُ المُفسِّرين المقارَبةَ أصلًا.

رأي ابن هشام

وقد أنكر ابنُ هشام هذا الضّابط في (كاد) في الباب السادس من كتابه (المُغني) في التحذير من أمور اشتَهَرت بين المُعرِبين، والصوابُ خلافُها، وقال إنّ الصواب في (كاد) أن حكمها حكم سائر الأفعال في أن نفيَها نفيٌ وإثباتَها إثباتٌ، وبيانه: أن معناها المقارَبَة ولا شكّ أن معنى (كاد يفعل) قارَبَ الفعل، وأنَّ معنى (ما كاد يفعل) ما قارَبَ الفعل، فخبرُها منفيٌّ دائمًا[2].

معنى حرف الجر (إلى):

التحذير من انتهاء الغاية إلى موافقة الكفّار

عُدِّيَ الفعل ﴿تَرْكَنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ بـ(إلى) الدّالّةِ على انتهاء الغاية، بمعنى: أنّه لولا تثبيتُ الله لك لقارَبَ أن يكون غايةُ أمرِك موافقتَهم والمَيْلَ إلى اتّباع أهوائهم.

بلاغة الاستعارة في الآية:

تجسيد المعنى المعقول في شيء محسوس

تضمَّنَ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ صورةً بيانيَّةً من نوع الاستعارة، إذ الركون: المَيْلُ بالرُّكن؛ أي: بالجانب من الجسد، فاستُعير هنا للموافقة بعلاقة القُرْب؛ لأنَّ المائل يُدني جَنبَهُ إلى الشيء المُمال إليه[3].

بلاغة التقديم في الآية:

عصمة النبيّ ﷺ من الركون إلى موافقة الكفّار

جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لنكتة بلاغية وهي الاختصاصُ، بمعنى: أنّه لولا تثبيتُ الله لك لكان مَيْلُك إلى موافقتهم هم خصوصًا.

(1) درويش، إعراب القرآن: 5/ 481.
(2) ابن هشام، المُغني، ص: 869.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

دلالة التّنكير في ﴿شَيْـًٔا﴾:

خطورة الركون إلى الكفّار ولو بالقدر القليل

ورد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا﴾ لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾ مُنَكَّرًا مُفْرَدًا، والغرضُ البلاغيُّ من التنكيرِ فيه والإفرادِ هو التقليلُ، بمعنى أنّه لولا تثبيتُ اللّه لنبيّه لقارَبَ أن يميل إلى موافقتهم مَيْلًا يسيرًا.

فائدة حذف المفعول المطلق:

العدول عن المصدر طلبًا للخِفَّة

انتصب ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ على المفعوليّة المُطلقة لـ﴿تَرْكَنُ﴾؛ أيْ: شيئًا من الركون، ووجهُ العدولِ عن مصدر ﴿تَرْكَنُ﴾ هو طلبُ الخِفَّة؛ لأنّ مصدر تركن وهو الركون فيه ثِقلٌ فتركُه أفصحُ، وإنَّما لم يقتصر على ﴿قَلِيلًا﴾؛ لأنّ تنكيرَ ﴿شَيْـًٔا﴾ مفيدٌ التقليلَ، فكان في ذِكْره تهيئة لتوكيد معنى التقليل، فإنّ كلمة (شيء) لتوغُّلها في إبهام جنسِ ما تُضاف إليه أو جنس الموجود مُطلَقًا مفيدةٌ للتّقليل غالبًا؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النّساء: 20][1].

فائدة النعت في ﴿قَلِيلًا﴾:

المبالغة في التقليل تنزيهًا لمقَذِ النبيّ الجليل

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ نعتًا لـ﴿شَيْـًٔا﴾، والغرضُ من ذلك المبالغةُ في التّقليل، فإنّ كلمة (شيء) مفيدةٌ للتّقليل غالبًا، ثمّ تنكيرُها مفيدٌ للتّقليل أيضًا، ثمّ وصفُها بـ ﴿قَلِيلًا﴾ مبالغة في التقليل، فَرُكونُ النبيّ ﷺ إليهم غيرُ واقعٍ ولا مقارِب الوقوعَ؛ لأنّ الآية قد نفَتْه بأربعة أمور، وهي: (لولا) الامتناعية، وفعل المقاربة المقتضي أنّه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه، والتّحقير المُستفاد من ﴿شَيْـًٔا﴾، والتقليل المُستفاد من ﴿قَلِيلًا﴾[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّكون والمَيْل:

الميلُ أعـمُّ دلالةً من الركون

يتجلّى الفرقُ بين (الرُّكون) و(المَيْل) في الاشتقاق اللُّغويِّ لكلّ منهما، فلفظ ﴿تَرْكَنُ﴾ مُشتقٌّ من (الرُّكن) وهو جانب الشيء الّذي يُسكن إليه[1]، فمعنى ﴿تَرْكَنُ﴾ تستند بالرُّكن؛ أيْ: بالجانب من الجسد، فاستُعير هنا للموافقة، بعلاقة القُرْب، لأنّ الراكن يُدني جنبه إلى الشيء المُستنِد إليه، وأمّا لفظ (تميل) فهو من المَيْل وهو انحرافٌ في الشّيء إلى جانبٍ منه[2].

(1) الرّاغب، المُفردات: (ركن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مال).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»